المكية المزعومة بلا طائلة: أربع عشرة سنة، فلو أنهم أمروا في العهد المكي باتِّجاه القُدْس - ولم تكن فيه يهود ليزدادوا ابتلاءً بهم - لكان ذلك رادِعاً عن إسلامهم، وهم قوم لدٌّ ليسوا ليؤمنوا بكلّ الجواذب والتبشيرات، فكيف كان لهم أن يؤمنوا وهم يُفاجَؤون في بُزوغ الدعوة بترك القِبْلة المكية، وما هو الداعي لتكون القِبْلَة المكية هي القُدْس إلّا صداً عن دخولهم في دين الله بداية الدعوة؟ ثم ولم ينقل ولا مرة يتيمة أن جماعة من العرب امتنعوا عن الإسلام لأن قبلته متخلفة عن الكعبة المباركة، ولا أنه كان يصلي إلى القدس في مكة مُتحوّلاً عن الكعبة!... ولو كانت القِبْلة في العهد المكي هي القدس لشملت قصتها الكتب وتواترت في الألسن، ونقلت اعتراضات متواترة من عرب الحجاز على هذه القِبْلة!.

ثم وإن هوى أهل مكة كان في الكعبة فأراد الله أن يُبيِّن متبّع محمد ﷺ ممن خالفه باتِّباع القِبْلة التي كرهها ومحمد ﷺ يأمر بها[1] لا يُشْبِهُ حديث الحق، فإن مجال مخالفة الهوى في شرعة الحق - وبهذه الصورة القاسية - ليس في غضون الدعوة التي تتطلب لينة وجاذبية لهؤلاء القوم اللُّد!، والبداية بقبلة القدس هي من أعضل المشاكل صداً عن دخولهم في دين الله!.

نعم قد يُروى شطرٌ قليلٌ من العَهْدين لقِبْلَة القُدْس أن صلينا مع رسول

(١) نور الثقلين ١: ١١٤ في كتاب الاحتجاج قيل: يا بن رسول الله فلِمَ أمر بالقبلة الأولى؟ فقال: لما قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ - وهي بيت المقدس - إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] إلّا لنعلم ذلك منه وجوداً بعد أن علمناه سيوجد، وذلك أن هوى... ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها والتوجه إلى الكعبة ليبين من يوافق محمداً فيما كرهه فهو يصدقه ويوافقه... فعرف أن الله يتعبد بخلاف ما يريده المرء ليبتلي طاعته في مخالفة هواه... أقول: تفسير ﴿لِنَعْلَمَ﴾ يشبه تفسير المتفلسفين، ثم وسائر مواضيع الحديث يشبه التقاطات ملفقة بين حق وباطل.

الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القِبْلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين. . .[١] وهو وسط بين الأمرين، وفيه محنة لأهلي البلدين في العهدين.

هذا - وأما القِبْلةُ المدنية في بداية الهجرة فالجوُّ اليهودي فيها كان يزيد ابتلاء لتحول القِبْلة إلى القدس، فبرزوا بارزين من الناجحين في ذلك الامتحان العظيم كأعضاد للدولة الجديدة.

ثم لا معنى لـ﴿لِنَعْلَمَ﴾ في تحول القبلة، إلّا في تحولها عن الكعبة إلى القدس، حيث اتِّباع من اتَّبع الرسول ﷺ ليس علامة الإيمان إلّا هنا، وأما اتِّباعه في التحوّل إلى الكعبة بعد القدس فهو رغبة المسلمين أجمع، وحتى أهل الكتاب الذين أسلموا فَضْلاً عن أهل الحَرَمِ!.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۪ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾:

لقد بلغت مِحْنةُ الامتحان في قبلة القدس لحدٍّ يتقلب وجه الرسول ﷺ في السماء، نظرة الأمر بتحوّل القِبْلة المُمْتَحن بها إلى القِبْلة الأصيلة التي يرضاها، فمهما يرضى كلما يرضاها الله من قبلة، ولكن الكعبة المباركة هي أوّل بيت وضع للناس مباركاً وهدىً للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم، وهي مثابة للناس وقيام، فهذه جهة من رضاه بها، وأخرى هي انتهاء أمد الابتلاء بِقِبلَةِ القدس، وثالثة أن اليهود يحتجون عليه وعلى المسلمين بهذه القبلة، إذاً فـ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ لا تعني إلّا مرضاة الله، إذ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] كما ولا تعني سُخطه لقِبْلَةِ القدس، فإنما هو سخط لاستمرارية

(١) الدر المنثور ١: ١٤٦ - أخرج ابن ماجة عن البراء قال صلينا.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

الحجة اليهودية على المسلمين، زعزعة في إيمانهم، وزحزحة عن إيقانهم وكما قال الله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ ثم «التقلب» دون «التقليب» تلمح أنه ما كان يقلّب وجهه، وإنما يتقلّب وجهه أتوماتيكيّاً في السماء كما كانت تقتضيه الحالة الرسالية الأخيرة، الناظرة للقبلة الأصيلة... ثم ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هي ثالثة التأشيرات لكون القِبْلة المكية هي الكعبة المباركة، إذ كان الرسول ﷺ يحبُّها منذ عرف نفسه ومنذ أرسل، فهل كان يتقلّبْ وجهه في السماء طيلة العهد المكي إضافة إلى ردح من المدني: أربع عشرة سنة؟ وصيغته الصالحة «تقلبات وجهك» تدليلاً على التكرار والاستمرار، دون ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ اللّامح إلى مرة يتيمة جديدة جادَّة، عرف الرسول ﷺ فيها أن الامتحان حاصل، وأمر التحويل إلى المسجد الحرام على الأشراف، ولكنه لم يتفوه بدعائه واستدعائه لذلك التحوّل، فإنما إشارة الانتظار بتقلّب وجهه في سماء الوحي نَظِرةَ نَزول رسول الوحي حاملاً تحويل القبلة... ﴿قَدْ نَرَىٰ... فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ هي الكعبة المباركة التي أنا أرضاها، بعد الفترة الابتلائية المدنية لِقِبْلَةِ القُدس ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

كلّ ذلك يشي بتلك الرغبة القوية الرقيبة الظروف المؤاتية لتحوّل القِبْلة بعد ما كثر حجاج اليهود ولجاجهم، إذ وجدوا في اتجاه المسلمين إلى قبلتهم في تلك الفترة الخطيرة، وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتجديل، فأخيراً - ولما أحسَّ الرسول ﷺ بخاتمة البلية، أصبح يقلب وجهه في السماء، دون أن يصرح بدعاء[1] حرمة لأمر ربه على إمره، وتحرُّجاً من

(١) نور الثقلين ١: ١١٤ في تهذيب الأحكام الطاطري عن محمد بن أبي حمزة عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أمره به؟ قال: نعم إن رسول الله ﷺ كان يقلّب وجهه إلى السماء فعلم الله عز وجل ما في نفسه فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾.

اقتراح مبكّر ليس في وقته، فأجابه ربّه فور تقلب وجهه: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾[١] ولقد أمر بتلك التولية وهو يُصلّي في المسجد المسمى لذلك بـ«القِبْلتين»[٢].

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ عن القِبْلة المؤقتة الابتلائية ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كأمرٍ يختصُّه تشريفاً لسماحته وتعظيماً لساحته، ثم أمرٌ يعمُّ المسلمين كافة: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فما هو شَطْرُ القِبْلة هنا، وهل هو قِبْلةٌ - فقط - للنائين، أم وللقريبين إلى المسجد الحرام، أم والكائنين فيه أمام الكعبة المباركة؟.

---

(١) فالروايات القائلة إنه دعى مقترحاً بوسيط ملك الوحي ترجع إلى رواتها، كما يروى عن الإمام العسكري عليه السلام ... وجعل قوم من مردة اليهود يقولون: والله ما ندري محمد كيف يصلّي حتى صار يتوجه إلى قبلتنا ويأخذ في صلاته بهدينا ونسكنا واشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله لما اتصل به عنهم وكره قبلتهم وأحب الكعبة فجاء جبرئيل فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل لوددت لو صرفني الله عن بيت المقدس إلى الكعبة فقد تأذيت بما يتصل بي من قبل اليهود من قبلهم، فقال جبرئيل عليه السلام: فاسأل ربك أن يحولك إليها فإنه لا يردك عن طلبتك ولا يخيبك من بغيتك، فلما استتم دعاءه صعد جبرئيل ثم عاد من ساعته فقال اقرأ يا محمد ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾.

وفي المجمع عن القمي عن الصادق عليه السلام: ... ثم وجهه الله إلى مكة وذلك أن اليهود كانوا يعيّرون على رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون: أنت تابع لنا تصلي إلى قبلتنا فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك غمّاً شديداً وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر من الله في ذلك أمراً فلما أصبح وحضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم وقد صلّى من الظهر ركعتين فنزل جبرئيل عليه السلام فأخذ بعضديه وحوّله إلى الكعبة وأنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فكان قد صلى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة فقالت اليهود والسفهاء: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

(٢) وفي نور الثقلين ١: ١١٤ عن أحدهما في حديث القبلة قال: إن بني عبد الأشهل أتوهم وهم في الصلاة وقد صلّوا ركعتين إلى بيت المقدس فقيل لهم: إن نبيكم قد صرف إلى الكعبة فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، وصلّوا الركعتين الباقيتين إلى الكعبة فصلوا صلاة واحدة إلى قبلتين فلذلك سُمي مسجدهم مسجد القبلتين.

الشطر - لغوياً - هو نصف الشيء ووسطه، وهو نحو الشيء[١] وجهته، وهو بُعده، ويجمعهما جانب الشيء إما بجنبه داخلياً وهو نصفه، أم خارجياً وهو نحوه بعيداً عنه. فهل هو بعدُ: البعض؟ ولم تأت في اللغة كبعض! والمعنى - إذاً - بعض المسجد الحرام، فتراه أيّ بعض هو؟ أهو أي بعض منه؟ وتعبيره الصحيح ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ دون شطره، أم شَطْراً من المسجد الحرام، فإن ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني شطراً خاصاً منه!، ثم الشطر العام هو طبيعة الحال لمستقبله، إذ لا يمكن لأي أحد أن يستقبل كلَّ المسجد الحرام!.

أم هو شَطْرٌ خاصٌ ولا أخص من الكعبة؟ فلماذا - إذاً - شَطْرُ المسجد الحرام دون «الكعبة» وهي أصل القبلة! ثم وعين الكعبة لا يمكن أن تكون هي القبلة للنائي!.

أم هو نصف المسجد الحرام؟ فهل هو أيُّ نصف منه؟ فلماذا - إذاً - نصفه لا نفسه حيث تعني أي نصف منه ثم وتعبيره الصحيح «شطراً من المسجد الحرام» ثم وكيف يولي وجهه نصفه؟ ولا يولّى إلّا جزءَه قدرَ الوجه لو أمكن! ثم لا يتمكن البعيد أن يولي وجهه لا نصفه ولا بعضه!... أم هو منتصَفه «الكعبة» وهو غير النصف! ثم صالح التعبير عنه «الكعبة» دون منتصف المسجد الحرام، ثم ونفس الكعبة لا يمكن أن تكون قبلة النائين!.

أم هو نحوه وجانبه؟ وذلك هو الصحيح، وتعبيره ذلك الفصيح! فليس بإمكان النائي أن يولّي وجهه إلّا نحوه حيث يسع بين المشرق والمغرب وكما في الأثر المستفيض «بين المشرق والمغرب قبلة».

و﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ يعني خارج الحرم، أم - وبأحرى - خارج مكة، والسند ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يعني من مكة، وليس ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾.

(١) عن تفسير النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام في الآية قال: معنى شطره نحوه...

تكراراً، حيث الأول خطاب لخصوص الرسول ﷺ وقد يُظنُّ أن حكمه يخصه، والثاني يعمُّ عامة المسلمين، ثم ﴿فَوَلِّ﴾ لا تدلُّ على أن القِبْلة هي ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أينما كانوا و﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ تصريحة لشمولية الجهات، ثم الوجه - وهو ما يواجه أو يواجه - هو بأقل تقديره ثلث الدائرة، فالوجه المولّى وشطر المسجد الحرام المولى إليه، هما يصدِّقان «بين المشرق والمغرب قبلة» والكل مصدَّق بـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1].

ثم الوجه هنا لا يخص خصوص الوجه، بل وكلَّ مقاديم البدن، فلتوجّه كلها نحو المسجد الحرام، فإن للوجه وجوهاً حسب المولّى إياه، فوجه القراءة هو البصر، ووجه الوضوء هو كلّ الوجه، ووجه الاتّجاه لجهة سفراً أو صلاة هو كلّ وجوه البدن، اللهم إلّا اليد فإنها لا وجه لها، أم لا وجه لتوجيه وجهها المسجد الحرام.

وليست هذه التوسعة إلّا رعاية للسعة في الاتجاه نحو الكعبة المباركة، فالمتمكن لاستقبال عين الكعبة يستقبلها، ثم المتمكن لاستقبال المسجد الحرام يستقبله، ومن ثم استقبال شطر المسجد الحرام، المحدَّد بما بين المشرق والمغرب باتجاه الجنوب من كلّ أنحاء الكرة الأرضية، كما وأن الكرة الأرضية ككلّ هي ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لسكان سائر الكرات!.

وهذه طبيعة الحال في زاوية الاتّجاه إلى قِبْلةٍ وسواها، فكلما ابتعد مكان الاتِّجاه عنها انفرجت زاويتها لحدٍّ يصدق أن «ما بين المشرق والمغرب قبلة» وهي الزاوية المنفرجة حسب انفراج المستقبل بُعْداً عن القبلة.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

فـ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو ناحيته وجهته، ليس له حدٌّ خاص، بل هو حسب بعد الجهة يتشطر أكثر، كما في قُرْبها تنقلب منفرجة الزاوية إلى قائمة والى حادة، وكل ذلك حسب إمكانية الاتجاه كالعادة المستمرة، مهما هُندِست واجهة القِبْلة في عَصْرِ العلم بما يقرب شطر المسجد الحرام، إلّا أن رعاية الجهة المهندسة ثابتة شرط ألّا يكون عُسْرٌ أو حَرَجٌ.

ومن لطيف أمر السعة في القبلة إضافة سعة الوجه للمستقبل إلى سعة المواجهة للقِبْلَة، فالوجه هو ثلث الدائرة، وشطر المسجد الحرام هو الجهة التي فيها المسجد الحرام، فالاتجاه بجزء من الوجه في زاوية قدرها (٦٠) درجة، نحو المسجد الحرام كلما صدق عليه زاوية الاتجاه، ذلك هو فرض النائي، والنتيجة كما في المستفيضة «ما بين المشرق والمغرب قبلة» يعني جهة الجنوب وهي قرابة تسعين درجة، خارجاً عن نقطة الشرق والغرب، ما صدق أنه جهة الجنوب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ علّه ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كقبلة، وبأحرى الكعبة المباركة كقلب القِبْلة، أم وهو الرسول ﷺ لسابق ذكره، إذاً فقبلته حقٌّ ضمن رسالته، أم هما معنيان على البدل والأصل هو الرسول ﷺ، وتراهم كيف يعلمون أنه الحق من ربهم؟ قد تعني أن السنة الكتابية هي النسخ ابتلاءً وتدريباً، فكما أن سائر كتابات السماء فيها نسخ ما قل أو كثر، فليكن كذلك القرآن!، أم أن معرفة كتابات الوحي تحمل على تصديق القرآن كواحد منها لأقل تقدير، فليصدَّق - من ضمنه - البيت كقبلة!.

أم ولأن في هذه الكتابات تأشيرات أم تصريحات بالكعبة المباركة كقِبْلةٍ إسلاميةٍ أم وأمميةٍ إلّا شطرات في تاريخ الرسالات.

ومنها ما في (أشعياء ٥٦: ٨) حسب الأصل العبراني: «كي بِيتي بِيْت تَفيلا ييقارُء لِخالْ هاعَمِيْم» «بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الشعوب».

مع العلم أن «بيتي» صيغة خاصة للكعبة المباركة، ولم تستعمل بهذا الاختصاص إلّا فيها.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تعمّ كافة أهل الكتاب في الرسالات الكتابية على مدار الزمن، فالانحيازات الكتابية - ككلٍّ - من جهة - إلّا من آمن -.

والعنصرية الإسرائيلية بوجه خاص، ثم الطائفية الكتابية في الرسالة الإسرائيلية بوجع عام، هما من الموانع لأن يتّبعوا قِبْلَتَكَ - إلّا قليلاً منهم - وإن أتيتهم بكل آية بينة، ثم ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ سناداً إلى حجة الوحي الصارم، وقبلة القدس المؤقتة لم تكن متبوعة لك كقِبْلَةٍ يهودية، وانما ﴿لِنَعْلَمَ﴾... وليعلم أهل الكتاب أنك لست جامداً على قِبْلةٍ عنصرية أم طائفية فـ ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ تنفي هذه التبعية بأمر الله - فضلاً عن سواه - من الحال حتى آخر زمن التكليف، فهي عبارة أخرى عن أنها - بعد - لا تنسخ، قطعاً لآمال أهل الكتاب، وصدّاً عما يخلد بخلد الرسول ﷺ من التحول إلى قبلة القدس تقريباً لأهلها إلى الإسلام.

ذلك! وكما نفت - عما سلف من قِبْلَةِ القدس - اتّباعه لها لمجرّد هوى أهلها، فإنه اتّباع لأمر الله في مصلحة وقتية، ثم هنا مقابلة بين حقّ القبلة وباطلها، فهم ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ سلباً باطلاً ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ سلباً حقاً.

ثم وكيف بالإمكان اتِّباع قبلتهم وهي بين القدس والمشرق، فاتّباع كلٍّ رفضٌ للآخر، فليترك اتِّباع الأهواء المختلفة - المستحيل تحقيقها - إلى اتِّباع هدى الله.

ثم ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فالبعض اليهود مستقبلون القدس على طول الخطِّ دون تحوّل إلى شرق المسيحي، والبعض المسيحي مستقبلون الشرق دون تحوّل إلى القدس، أفأنت تهوى - بعدُ - أن تتبع أهواءهم في اتِّباع قبلتهم لفترة أخرى حتى يتبعوا قبلتك؟.

فحتى ولو اتَّبع بعضهم قبلة بعض، وأصبحت القبلة الكتابية واحدة، فـ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إذ قُضي أمر التحويل تمييزاً لأهل الحق عن غير أهله.

ثم اليهود والنصارى على وحدتهم في تكذيبك هم مختلفون في قِبْلَتِهم، فكيف يرجون أن تتبع قبلتهم؟!.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في أيٍّ من الطقوس الكتابية ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بحق الشرعة الإلهية، بعد ما كُنْتَ من العادلين في استقبال القبلتين.

هنا ﴿وَلَئِنِ﴾ تلمح أن الرسول كان يودُّ - بعنوان ثان - التحوّل إلى قِبْلَةِ القدس فترة أخرى رغبة في تميُّل اليهود إلى الإسلام، إذاً فـ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ لا تعني أنه لا يرضى القدس، وإنما هو لو خُلِّي ونفسه كان يرجِّح الكعبة المباركة، وهو - كضابطة رسالية - يحب ما أحبه الله ثم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا هم العارفون بما في الكتاب من حقِّ هذه الرسالة الأخيرة، ثم ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] لا وعوامهم المشتبهون باتِّباعهم إلّا الصامدون في تقليدهم الأعمى، ولا كلّ علماء الكتاب، فالذي يجحد

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

بالحق وهو على علم به بأدلته، ليس ليتحوّل عن نكرانه له بأدلته، فهو من الذين ﴿زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[١] امتناعاً لاتباع هذه القبلة باختيار.

وهنا ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ﴾ تشديد على العلماء في مسؤولية الحفاظ على ما يعلمونه حقاً، وتنديد بهم إن تركوها كأنهم لا يعلمون، فالإقدام على أمر جَهْلاً هو أقل مسؤولية من الإقدام عليه بتخلف علماً.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾:

إيتاءُ الكتاب هنا هو الإيتاء معرفياً، دون مُجرَّد الانتساب أنه كتابي ولا يعلم الكتاب إلّا أماني.

و﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ بعد ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دليل أن الرسول ﷺ معروف لديهم في الكتاب كمعرفة الأبناء - وهي قمة المعرفة المعروفة - حيث الضمير راجع إليه دون القرآن، فإن تعبيره الصحيح - إذاً - كما يعرفون كتابهم، كما ونجد نفس الآية في الأنعام بنفس المعنى ونفس السند: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٢].

ولماذا ﴿أَبۡنَآءَهُمۡۘ﴾ دون «آباءهم - أو - أمهاتهم»؟ لأن كلاً من الأبَوَيْنِ يعرف ما ولده دونما استثناء، وقد لا يعرف الولد مَن ولَّده، إذ وُلد بعد موته أم مات في صغره، إذاً فأعرف التعريف بهذا الرسول ﷺ في معرفة أهل الكتاب هو ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۘ﴾.

ويا له من معرفة نظرية بمواصفة كتابية، تشبه معرفة حسية في قمَّتها، وهم له منكرون، مؤوِّلين اسمه المذكور في كتبهم تارةً بغير اسمه؛ وصفاً أو

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٠.